عصور - تصنيف ج- المجلد 22 / العدد01 - جوان 2023
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال: 10.54239/2319-022-001-012(DOI)

منهج الكتابة التاريخية عند حمدان بن عثمان خوجة من خلال كتابه "المرآة"

The Historical Writing Method Through The Book Of The Mirror By Hamdan Khodja

د. عبد الحفيظ موسم*
جامعة الدكتور مولاي الطاهر– سعيدة ، الجزائر
abdelhafid.moussem@univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 2023/01/15 تاريخ المراجعة: 2023/02/20 تاريخ القبول:2023/04/30

الملخص:

تتناول هذه الدراسة منهج الكتابة التاريخية عند حمدان بن عثمان خوجة من خلال كتابه "المرآة"، فكما هو معلوم أن ماضي الجزائر لم يكن خاليا تماما من المؤرخين، إذ أن هناك العديد من الوطنيين الجزائريين ممن أرخوا للجزائر وكتبوا عن أحداثها، موضحين من خلال كتاباتهم الكثير من الأمور والقضايا بحكم ثقافة عصرهم، وخير شاهد على ذلك حمدان خوجة الذي ترك لنا آثارا علمية قيمة، أشهرها كتاب "المرآة"، الذي يعتبر من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي.

أما عن الأهداف الأساسية لهذه الدراسة فإنها تتمثل بالدرجة الأولى في التعرف على منهجية الكتابة التاريخية التي اعتمدها عثمان خوجة في مؤلفه "المرآة،" من خلال تسليط الضوء على الدواعي والأسباب الرئيسية التي دفعته للكتابة، وكذا الخصائص العامة لمنهجيته في ذلك، بما يجعلنا نتأكد من خلال البحث في هذا الموضوع، أن كتابات حمدان خوجة قد

* د.عبد الحفيظ موسم / جامعة سعيدة.

اتخذت شكل المقاومة الثقافية والسياسية للاستعمار الفرنسي، وهي المقاومة التي لم تعرفها الجزائر إلا بعد حوالي قرن من الاحتلال.

الكلمات المفتاحية: حمدان بن عثمان خوجة؛ كتاب المرآة؛ المنهج؛ الروح الوطنية؛ الاستعمار؛ الجزائريين؛ تاريخ الجزائر؛ الوعي التاريخي.

Abstract:

The current research addresses the historical writing method through the book of The Mirror by Hamdan Khodja. As is known, there were many Algerian historians patriots who had dated for Algeria's historical events. That was through their writings in which several patterns and issues of their time were culturally revealed. This is evidenced by the historian Hamdan Khoja's valuable scientific career, the most widely known is the book of "The Mirror", which is considered one of the main sources for studying the history of Algeria during the Ottoman era and the beginning of the French occupation.

The primary aim of this study is firstly to examine the historical writing method adopted by Hamdan Khodja in his book of The Mirror. This is through highlighting the key reasons and impulses for writing and the general characteristics of his methodology. Hence, the results revealed that Hamdan Khodja's writings took a cultural and political resistance form to French colonisation, a resistance that Algeria has known only after about a century of colonisation.

Keywords: Hamdan Khodja; The Book Of The Mirror; National Spirit; Colonisation Algerians; Algeria's history; historical awareness.

- مقدمة:

ظهرت خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، مجموعة من الشخصيات الجزائرية البارزة التي استطاعت بفضل تأثرها وتشبعها بالفكر القومي والوطني، الذي كان سائدا حينذاك في أوروبا، أن تتفطن إلى أهمية الحديث عن ماضي الأمة، وإعادة الاعتبار للتاريخ الوطني الذي تعرض للتشويه من قبل الاستعمار الفرنسي، هذا الأخير الذي جند ترسانة ضخمة من المؤرخين والباحثين الغربيين الذين أُوكلت لهم مهمة رئيسية تستهدف قطع صلة الجزائريين بحضارتهم، وجعلهم شعبا بلا هوية. وأمام هذا الوضع المرير، كان عليهم (الجزائريين) رفع التحدي والتصدي لكتابة تاريخ وطني أصيل، يعكس عراقتهم وامتدادهم الحضاري ويؤكد وجودهم الذي لم تصنعه يد المحتلين.

وقد انبرى لهذه الغاية النبيلة والمهمة الشاقة والمحفوفة بالمخاطر، ثلة من الوطنيين الجزائريين الذين كان في طليعتهم حمدان بن عثمان خوجة، الذي يعتبر من أشهر المهتمين بشأن المدرسة التاريخية الجزائرية خلال القرن التاسع عشر، بناء على ما تركه لنا من آثار علمية قيمة أشهرها كتاب "المرآة"، الذي يعتبر من أهم المصادر الأساسية لدراسة تاريخ الجزائر خلال الحقبة العثمانية وبداية الاحتلال الفرنسي. وسوف نسلط الضوء في هذه الدراسة على منهج حمدان خوجة في الكتابة التاريخية من خلال كتابه "المرآة"، معتمدين في ذلك على المنهج التاريخي في تتبع مسار اهتمامه بتدوين واقع وأحوال الجزائر؛ بهدف الإجابة على التساؤلات التالية: من هو حمدان بن عثمان خوجة؟، فيما تمثلت دواعي الكتابة التاريخية عند حمدان خوجة انطلاقا من كتابه "المرآة"؟، وما هي خصائص منهجه في كتابة التاريخ من خلال كتاب "المرآة"؟.

1. التعريف بشخصية حمدان بن عثمان خوجة:

هو حمدان بن عثمان خوجة (أنظر التعليق رقم واحد)، أحد أبطال القومية العربية المسلمة (الجيلالي، 1994، صفحة 253). جزائري المولد والنشأة، فرغم اختلاف الآراء وتضاربها حول تاريخ ميلاده إلا أن الأرجح أنه من مواليد 1773، وهذا بالاعتماد على ما قاله بنفسه في هذا الشأن: «إنني عشت بالجزائر إلى أن بلغت الستين من عمري». وهو ما يؤكد تاريخ ولادته سنة 1773 باعتبار أنه غادر البلاد نهائيا سنة 1833 (تميم، 2008، صفحة 78).

يعتبر حمدان خوجة من شريحة الكراغلة، وهو ما تأكد على لسانه حين قال: «أنا الكرغلي بالذات كنت مستشارا في حكومة الداي» (كبير، د.ت، صفحة 09). وينحدر من أسرة جزائرية عريقة ذات وجاهة عظيمة مالا وثقافة (بديدة، 2010، صفحة 19) تمتلك الأراضي الشاسعة في سهول متيجة والمحلات التجارية في مختلف أنحاء العاصمة. فقد كان لآبائه وأجداده قدر رفيع لدى حكام الأتراك في الجزائر، حيث تولى أبوه عثمان منصب أمين عام لدولة مكتابجي (أنظر التعليق رقم 02)، ولُقب بالأفندي (أنظر التعليق رقم 03) ، أما والدته خديجة فكانت بنت لأحد الخواجات، وهي من النساء اللواتي وُلدن في الجزائر من أباء أتراك. كما كان خاله موظفا ساميا في الدولة من موظفي الديوان

المكلف بالإشراف على شؤون العملة المعروف بأمين السكة أي أمين بيت المال (بوصفصاف وآخرون، 2004، صفحة 102).

لقد حُظي حمدان خوجة بالرعاية الأبوية، فتلقى مبادئ اللغة العربية عن والده والتحق بمدرسة حفظ القرآن الكريم في سن مبكر، كما تعلم مبادئ الحساب والأصول والفقه وعلم الحديث. ونتيجة لتفوقه في مساره الدراسي، أخذ أبوه يلقنه أصول الإدارة والحكم كما بصره بأمور السياسة، ونما فيه روح الشريعة الإسلامية. هذا وأخذ حمدان خوجة على يد شيوخ آخرين من أمثال "محمد بن علي" (عميراوي، 1987، صفحة 111)، حتى أصبح واسع الثقافة عالما بكثير من العلوم التي أهلته لأن يكون واحدا من الشخصيات البارزة التي تمتعت بثقافة وإطلاع واسع في هذه الفترة من تاريخ الجزائر (بن رمضان و الغوثي، 2002، صفحة 139).

وحسب محمد بن عبد الكريم، فإن عثمان قد أرسل ابنه حمدان إلى الأستانة لطلب العلوم وممارسة التجارة، ولما عاد إلى الجزائر واصل دراسته مستعينا بوالده، فتلقى أصول إدارة الحكم التركي وأصول الفقه والفلسفة والطب، كما تقلد عدة مناصب إدارية حتى عُين مستشارا للداي حسين (1818- 1830). وكان حمدان خوجة همزة وصل بين الجزائر والدول الأوروبية، باعتبار أنه كان يتقن لغاتها كالفرنسية والانجليزية والتركية (بن عبد الكريم، 1972، الصفحات 88-93).

وبعد وقوع الجزائر تحت نير الاحتلال الفرنسي، تجند حمدان خوجة للدفاع عنها بفكره وقلمه الذي سخرهما للمطالبة بحقوق أبناء وطنه المسلوبة، ولكشف فضائح الاحتلال، ومن أجل إيصال صوته إلى الرأي العام الفرنسي والعالمي، رحل إلى باريس عام 1833، وبها وجّه العديد من الرسائل والعرائض والتقارير إلى رجال السياسة والفكر ليلتفتوا إلى قضية الجزائر، وأمام إصرار فرنسا على احتلالها للجزائر، غادر حمدان خوجة باريس عام 1836 متجها إلى القسطنطينية، فاستقر بها إلى أن وفاه الأجل في أواخر 1840(أنظر التعليق رقم 04)، تاركا وراءه إرثا فكريا زاخرا مفعما بأفكار نضالية، تضمنتها كتبه ورسائله على غرار كتابه "المرآة" (بن عبد الكريم، 1972، الصفحات 88-93).

2. أضواء على كتاب "المرآة" لحمدان خوجة:

ألف حمدان خوجة كتابه "المرآة" باللغة العربية في باريس سنة 1833 خلال مدة زمنية قصيرة (أنظر التعليق رقم 05) وذلك حين أعلنت الحكومة الفرنسية بإلحاح من العرائض التي قدمها الأعيان ومنهم حمدان خوجة نفسه، عن إرسال لجنة تحقيق إلى الجزائر (سعد الله، 1998، صفحة 399). ثم ترجمه صديقه حسونة الدغيس (أنظر التعليق رقم 06) إلى الفرنسية تحت عنوان: "لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر". (Aperçu Historique et statistique sur la régence d'Alger) . وذلك في أواخر أكتوبر 1833 (عميراوي، 1987، صفحة 75). كما ترجمه إلى العربية إثنان من الباحثين الجزائريين هم:

- ترجمة الأستاذ محمد بن عبد الكريم سنة 1972، وهي ترجمة كاملة لمحتويات الكتاب بما فيها الوثائق التي ضمنها المؤلف كتابه، والتي جاءت على شكل قسم ثالث في الكتاب وهي منشورة عن دار مكتبة الحياة ببيروت.
- ترجمة الأستاذ محمد العربي الزبيري المنشورة من قبل الشركة الوطنية سنة 1975، وهي مبتورة من القسم الثالث الذي يضم مجموعة من الوثائق الخاصة للمؤلف (عقاب، 2007، صفحة 32).

وعليه يعتبر كتاب "المرآة" من أوائل الكتب التي صدرت بعد الاحتلال، حيث تناولت أحداثه وحكمت عليه بالفشل من البداية واستنكرت فضائحه وبذرت البذور الوطنية، وبشرت بالتضامن الإسلامي للتحرر من الاستعمار (سعد الله، 1998، صفحة 396). وقد قسم حمدان خوجة مؤلفه "المرآة" إلى مقدمة وكتابين وملحق (بن عبد الكريم، 1972، صفحة 90).

فجاءت المقدمة على شكل تمهيد لمؤلفه "المرآة" بأسلوب عاطفي جذاب فيه من الإثارة ما له من القدرة في استنهاض الضمير الإنساني لدى الرأي العام الفرنسي (بن عبد الكريم، 1972، صفحة 91)، إذ استهلها بالحديث عن الظلم الذي حل بالجزائريين، وقارن بينهم وبين وضع غيرهم في أوروبا مبينا فيه الأسباب الذي دفعته إلى هذا التأليف (خوجة، 1972، الصفحات 03-07).

وبالنسبة للكتاب الأول، فقد ضم ثلاثة عشرة فصلا تناولت في مجملها واقع بدو الجزائر في السهول (العرب) والجبال (البربر)، وعادات سكان سهل متيجة وسكان التل والصحراء، ثم تحدث عن سكان الجهات الغربية من البلاد الجزائرية (تلمسان، وهران، معسكر، مليانة...)، مركزا في ذلك عن أوضاع مدينة الجزائر. هذا بالإضافة إلى حديثه عن حكومة الأتراك (نظامهم وأصلهم)، والأمور المتعلقة بصناعة السفن وتوزيع الغنائم وكيفية تحديد الرسم على الأراضي وجمع الضرائب، دون إغفال واقع الضعف السياسي والعسكري الذي أصاب حكومة الأتراك (عقاب، 2007، الصفحات 27-28).

أما الكتاب الثاني، فقد ضم اثني عشر فصلا، تتعلق في مجملها بالصراع بين الجزائر وفرنسا، بدءً بالحديث عن أسباب الحرب وتفاصيل النزول بسيدي فرج والأعمال الوحشية التي ارتكبها الاستعمار عشية الاحتلال، ثم الحديث عن البايات بعد الاحتلال لا سيما باي التيطري مصطفى بومزراق، وعن غزو كلوزيل البليدة والمدية وتقرب اليهود من الفرنسيين (عقاب، 2007، الصفحات 28-29).

كما ضم كتاب "المرآة" ملحقا من عدة وثائق، جاءت كلها عن النتائج السياسية للاحتلال خلال السنوات الثلاث الأولى (سعد الله، 1998، صفحة 400)، على شكل شكاوي واحتجاجات وعرائض، نذكر منها: رسالة حمدان خوجة إلى الملك الفرنسي (لوي فيليب)، رسالة حمدان خوجة إلى مقر مجلس الدولة الفرنسية، عريضة من أعيان الجزائر إلى الملك الفرنسي، وثيقة تضم شهادات من عدة أشخاص تثبت بأن عظاما لأموات جزائرية نقلت إلى مرسيليا لاستعمالها في الصناعة (عقاب، 2007، صفحة 30). وقد أعلن حمدان خوجة في نهاية مؤلفه المرآة أنه سيؤلف جزءا آخر، ولكننا لا نعرف إن حقق ذلك، ولعل خيبة أمله في لجنة التحقيق واستحالة عودته إلى بلاده في تلك الظروف، قد قللت من عزيمته وجعلته يهتم بمصيره فلجأ إلى إسطنبول (سعد الله، 1998، الصفحات 400-401).

وللإشارة فقد كان لصدور كتاب "المرآة" صدى كبير في أوساط السياسة الفرنسية، حيث منعت إدارة الاستعمار الفرنسي ذكر اسمه بين المؤلفات وقوائم الكتب، فلا يذكر همسا ولا تكاد تجد ذكره ضمن البحوث أو الكتب التاريخية التي لها

علاقة بتاريخ الجزائر إلا نادرا، فتراهم يشيرون إليه إشارة عاطفة وبغموض وإبهام (الجيلالي، 1994، صفحة 259)، وأكثر من ذلك فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية حمدان خوجة المحرض الأول على الفتن في الجزائر معتبرة كتابه "المرآة" وثيقة خطيرة تهدد الاحتلال الفرنسي للجزائر، لذلك قررت فرنسا أن تصادر جميع ممتلكات المؤلف، ثم محاكمته في الجزائر غيابيا، رافضة بذلك كل الشكاوي التي تقدم بها من قبل. ولم تستجب حكومة الاستعمار الفرنسي لشكاوي الجزائريين الذين طالبوا بالكف عن تضييق الخناق على حمدان خوجة وغيره من علماء الجزائر وأعيانها، بل قُوبلوا جميعا بالإهانة والسخرية (عقاب، 2007، الصفحات 39-41).

3. دواعي الكتابة التاريخية عند حمدان خوجة من خلال كتابه "المرآة":

الحقيقة أن حمدان خوجة لم يكن مؤرخا حين أقدم على تأليف "المرآة"، بل كان عندئذ رجلا سياسيا برز في وقت الأزمة ليمثل أهل بلاده لدى الرأي العام الفرنسي ورجال الحكومة الفرنسية، غير أنه اضطر إلى الرجوع لكتابة الأحداث التاريخية (عقاب، 2007، الصفحات 400-401). ففيما تمثلت أسباب ودوافع عودة حمدان خوجة إلى كتابة التاريخ انطلاقا من مؤلفه "المرآة"؟.

لم يعد حمدان خوجة إلى الكتابة التاريخية إلا بعد أن مر بمراحل تجارية وسياسية متعددة، وعندما لم يحالفه الحظ فيها وضاعت ممتلكاته وتقلصت آماله، لجأ إلى ميدان آخر ليعوض ما فاته على أن يربح نفسه شأنه في ذلك شأن الكثير من المفكرين، أمثال ابن خلدون الذي عجز عن تحقيق ما كان يصبوا إليه من مناصب سياسية، فعوض ذلك بتآليف مشهورة (عميراوي، 1987، صفحة 74). وقد نجح حمدان خوجة في هذا النوع نجاحا كبيرا، لذلك فإن أقل ما يُقال هو أنه قد حاول أن يقدم لأبناء وطنه بعض ما كان يؤمن صالحا لهم. وهو ما برز واضحا في مضمون مؤلفه "المرآة"، الذي استطاع من خلاله أن يُطلع الرأي العام الفرنسي على الحقائق المزرية التي تعيشها الجزائر (عميراوي، 2005، صفحة 400).

إن قراءة مضمون كتاب "المرآة" قراءة تأملية، تجعلنا نقف على الحقائق العامة التي دفعت حمدان خوجة إلى كتابة هذا المصدر الهام من مصادر تاريخ الجزائر، وفي

مقدمة هذه الحقائق القومية الوطنية. ففي الصفحات الأولى منه نلمس مدى تأثره بفكرة القومية الوطنية ليكون بذلك من أوائل الدعاة إلى الحركة الوطنية وإلى استقلال الشخصية الجزائرية عن المستبد الفرنسي، حيث كان غيورا على وطنه ومتحسرا على ما لحق به من ظلم، إذ نجده يعتز بجزائريته (خوجة، 1972، صفحة 05)، ويؤكد على استعداده للدفاع بكل ما أُوتي به من قوة عن وطنه الجزائر، وهو ما جسده من خلال نضاله السياسي المستميت (خوجة، 1972، صفحة 08).

ومما لا شك فيه أن تأثر حمدان خوجة بالفكر القومي والوطني الذي كان سائدا في أوروبا خلال القرن 19، وتعرفه على مقومات وسبل تحقيق القومية من طرف بلدان أوروبية عديدة، هي التي جعلته يدرك بأن الحرية هي أساس لتجسيد القومية، وأن لكل شعب الحق في الاستقلال وتأسيس أمة وقومية متحررة إن كان مؤهلا لذلك (الجيلالي، 1994، صفحة 32)، فكل شعب له لغة ودين وعادات يختلف بها عن الشعوب الأخرى، يحق له تكوين وطن مستقل وقومية تمثل هويته، وهو ما حققته عدة دول على أرض الواقع، عكس الشعب الجزائري الذي حرمه الاستعمار الفرنسي من ذلك (عقاب، 2007، الصفحات 43-44)، وهو ما أشار إليه في كتابه "المرآة" حين قال: «وعندما أتأمل في أوضاع الشعوب الأخرى، لا أجد من بينها شعبا محكوما عليه بأن يقاسي...، فأرى اليونان قد أستجيب إلى استغاثته وتجمع شمله...، وأرى الشعب البلجيكي قد انفصل عن هولندا بسبب اختلاف في سياستهما ودينهما، وأرى الشعوب الحرة تعتني ببولونيا من أجل إعادة جنسيتها...، وعندما أعود لألقي نظرة على أرض الجزائر، فإني أبصر سكانها التعساء يئنون تحت نير الظلم والإبادة وشتى كوارث الحرب» (خوجة، 1972، صفحة 18).

وزيادة على ما سبق، فإن وطنية حمدان خوجة كانت على قدر كبير من الأهمية في تأليفه لكتابه "المرآة"، الذي أبرز من خلاله معاناة شعبه وفضح وحشية الاستعمار. فقد بحث مطوّلا عن سبل خلاص الجزائر من قبضة الاحتلال، ولم يجد حلا لذلك غير التشهير بفرنسا وبأعمالها الدنيئة، وفضح أفكارها الجوفاء التي تنادي بها في المحافل الدولية ومؤتمراتها. وأبرز أيضا النزعة القومية التي اتصف بها العالم المسيحي، في الوقت

الذي كان فيه ذلك العالم يحمل كثيرا من الحقد والكراهية للمسلمين قاطبة (عقاب، 2007، صفحة 06).

فعلى هذا الأساس، اتجه لكتابة مؤلفه "المرآة" متوخيا من ذلك استنهاض همم الجزائريين بقوله: «أحقا تتجدد نوائب القرن السادس عشر لتعيد الكرة في القرن التاسع عشر؟...، إن أنباء الآلام التي يقاسيها أبناء وطني لتصك مسامعي من حين إلى حين، وهي التي دفعت بي أن أجدد شجاعة بعض التعساء منهم، وأنهض بمعنوياتهم الخامدة...، لقد فتشت عن شيء يسلي هذا الشعب عن حقوقه المغتصبة، ويعزيه في آماله الخائبة، فوجدت أنه لم يحظ بأية رحمة ولا بأدنى عدالة...، وفي الختام إنني أتساءل: لماذا استوجب وطني تزعزعا في جميع أسسه وأركانه، كما أصيب في جميع عناصره الحيوية!» (خوجة، 1972، الصفحات 19-20).

ويبدو أن حمدان خوجة لم يقم بنشر هذا الكتاب إلا بعد أن بلغ السيل الزبى، ذلك لأنه كان يود قبل أن يقدم على طبع "المرآة" بتخفيف حال الجزائريين المعذبين في أرضهم طيلة ثلاث سنوات انتظرها المؤلف دون جدوى (عقاب، 2007، صفحة 32)، غير أنه لم يتردد في نشر كتابه خاصة بعد أن قررت فرنسا إيفاد لجنة خاصة عُرفت باللجنة الإفريقية، لتقصي الحقائق عن الجرائم التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي بالجزائر، حيث كان غرضه من ذلك أن يسلم نسخة من تأليفه بعدما حذف منها عبارات التحامل على بعض الأشخاص للجنة الإفريقية (جوليان، 2008، صفحة 194)؛ لأنه كان يعرف أن هذه اللجنة - التي ظن فيها العدل والخير- ستواجه أكداسا من الوثائق والبيانات المغالطة لحقائق الوضع من أنصار الاستعمار والمستعمرين أنفسهم، محاولين تشويه صورة الجزائر (سعد الله، 1998، صفحة 399)، ملتمسا (حمدان خوجة) بذلك العدالة الإنسانية وعدم المحاباة من أعضاء اللجنة في إعادة حقوق الجزائريين وإقناع فرنسا لكي تعترف بما لهم وماعليها (خوجة، 1968، صفحة 30).

الظاهر أن حمدان خوجة، كان يأمل أن اللجنة ستحكم بعد التحقيق والاطلاع على كتابه الذي كتبه من موقع الخبير بالأوضاع والممثل لأهل بلاده بجلاء الجيش الفرنسي ووقف الاستيطان ووضع حد لمصادرة الأوقاف وتغيير المعالم، وسلوك سياسة

جديدة تقوم على الاعتراف بدولة يحكمها جزائري، وترتبط مع فرنسا بعلاقات تجارية ممتازة، غير أن حلمه تحطم عندما حكمت اللجنة بعكس ما توقع، بل أوصت بدعم الجيش وتثبيت الإدارة، واعتبرت الجزائر بلاد حيوية لفرنسا بعد أن درست مواردها الطبيعية وموقعها الاستراتيجي (سعد الله، 1998، الصفحات 399-400).

4. خصائص منهجه في كتابة التاريخ من خلال كتاب "المرآة":

إن قراء متأنية في كتاب "المرآة" لحمدان بن عثمان خوجة، تجعلنا نقر بروحه المتفتحة وبأفكاره الجديدة المدعمة بالحجج القوية، وبقدرته الفائقة في مقارعة الحكومة الفرنسية بقوانينها (عميراوي، 1987، صفحة 74)، إذ يظهر من خلال كتابه مؤلفا طويل النفس مهتما بصفة بارزة بتاريخ الجزائر، وهو أمر منطقي في نظرنا، بدليل أنه من الصعب إن لم نقل -من غير الممكن- على حمدان خوجة أو على غيره من المؤرخين الجزائريين أن يركزوا اهتمامهم على التاريخ الإنساني العام، في وقت كان فيه تاريخهم نفسه بحاجة إلى البعث والإحياء، لا سيما ونحن نعلم أن تاريخ الجزائر كان قد كتب وقتذاك وفي أغلب الأحوال من وجهة نظر واحدة، وهي وجهة استعمارية بحثة بلا ريب، كُلف بها المستشرقون في غالب الأحيان، لذلك فلا أحد أجدر من أبنائها للقيام بهذا الدور الحيوي (مرتاض، 1983، الصفحات 207-208) وهو الدور الذي قام به حمدان خوجة عندما استطاع تأليف كتابه "المرآة" في ظرف وجيز، وبمنهج حديث يعكس مدى تطور الوعي التاريخي الجزائري لمؤلفه (بكاري، 2015-2016، صفحة 299).

إن المنهج الذي انتهجه حمدان خوجة في كتابه "المرآة"، يختلف عن مناهج المؤرخين الجزائريين الذين عاصرهم، فهو لم يتبع الطريقة الإسلامية في الاعتماد على الشواهد الشعرية، ولا الأساليب القرآنية ولا الاعتماد على السنوات (سعد الله، 1998، صفحة 306) وذكر الدول والعهود، بل اتبع طريقة حديثة تعتمد على انتقاء الموضوعات التي كانت تبدو اجتماعية واقتصادية وثقافية أكثر منها سياسية (زوزو، 1971، صفحة 92). ويمكننا تتبع خصائص منهجه في الكتابة التاريخية من خلال كتاب "المرآة" كما يلي:

- الاعتماد على مصادر أساسية في كتابته للمرآة، نذكر منها:

* المشاهدة المباشرة التي يصفها حمدان خوجة بالوثائق، لما لها من أهمية كبيرة في التعبير عن واقع الأحداث بالجزائر. ففي الوقت الذي تكونت لديه فكرة الكتابة عن الجزائر، زار عدة مناطق داخلية منها، والتي لم يكن قد زارها من قبل للتأكد من صحة ما سيكتبه. إذ يقول في هذا الشأن: «لو لم أكن متخوفا ومتألما من وضعية بلدي البائسة، بالإضافة إلى المتاعب التي سببتها لي شيخوختي، لجمعت مزيدا من عجيب الوثائق حول هذه المنطقة من إفريقيا» (خوجة، 1972، صفحة 41). إن دل هذا على شيء إنما يدل على إدراكه لأهمية المعاينة والمشاهدة المباشرة في الكتابة التاريخية (زوزو، 1971، صفحة 92).

* الأخذ عن التقاة من ذوي المكانة المباشرين لمهامهم كالبايات والدايات، إذ عبر عن أخذ أخبار السكان والمناطق والأحداث التي لم يكتب له معاينتها ومشاهدتها، عن غيره من ذوي تقه (زوزو، 1971، صفحة 93). من ذلك مثلا ما أخذه عن غيره بخصوص أهل الصحراء. إذ يقول في كتابه عنهم: «أما بالنسبة لسكان الصحراء، فأنا لم أقم بزيارة هذه المنطقة بنفسي، وإنما تحصلت على أخبارهم وأحوال المنطقة من أشخاص ذوي تقه (خوجة، 1972، صفحة 73). كما عبر في موضع آخر عند حديثه عن إيالة الغرب، عن أخذه من باي وهران وقسنطينة. إذ يقول: «إن هذه الجزئيات أخذتها عن باي تولى إدارة وهران ثم قسنطينة» (خوجة، 1972، الصفحات 199-207).

ومما لا شك فيه أن معرفته الخاصة ببعض الحكام والموظفين والتجار، الذين كان على اتصال بهم، قد ساعدته في الحصول على المعلومات أثناء كتابته "المرآة" (بكاري، 2015-2016، صفحة 305)، وهو الأمر الذي وضحه في كتابه عند حديثه عن مؤسسة بكري وبوشناق، إذ يقول: «لقد أخذت عن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات». ويقصد في ذلك النزاع الذي حدث بين الشركاء عندما تضخم الربح (خوجة، 1972، الصفحات 176-177).

- الاعتماد على الأساليب المقنعة في التعريف بالقضية الجزائرية، فغالبا ما نجده يفتتح كتاباته ومراسلاته بتذكير فرنسا بمبادئ ثورتها وقيمها الإنسانية كالعدل والنبل والحرية، محاولا بذلك وضع فرنسا أمام الأمر الواقع، وهذا حتى يُبين لقادتها وللعالم

ككل مدى مخالفة السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لتلك المبادئ (خوجة، 1972، الصفحات 257-268).

- الاعتماد على أسلوب الوصف والتحليل وعلى الأدلة الواقعية لإثبات شرعية دفاعه عن القضية الجزائرية، وفضحه للممارسات الاستعمارية غير الانسانية، حيث تناول أوضاع الجزائر الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بصفة شاملة، وبنظرة متفحصة تعكس مدى اطلاعه الواسع على أحوال الجزائر (خوجة، 1972، الصفحات 18-43).

- الاعتماد على أسلوب النقد الإيجابي، فحمدان خوجة كان يتميز بأفق فكري واسع، كما أنه كان مطلع بشكل إيجابي على المفاهيم الحديثة والثقافة العصرية، وهو ما ساعده على التوجه بالنقد لسياسة فرنسا في الجزائر (بن عبد الكريم، 1972، صفحة 82). وظهر من خلال كتابه "المرآة" أنه يمتلك القدرة في الرد المناسب بالحجج والأدلة على ممارسات الاستعمار الفرنسي في الجزائر، من خلال التمييز الواضح بين ما يُقال من طرف حكومة فرنسا وما يمارسه رجالاتها من جرائم مؤسفة في الجزائر، إذ يقول في هذا الشأن: «وجميع هذه الأخطاء المقيتة قد ارتكبت باسم فرنسا التي تنادي بتحرير الشعوب وحقوق الإنسان!» (خوجة، 1968، صفحة 35).

- الاعتماد على أسلوب المقارنة في التعبير عن الأحداث والكشف عن مواقفه تجاه النظام العثماني من جهة والاحتلال الفرنسي من جهة أخرى، حيث عقد مقارنة بين نظام الحكم العثماني ونظام الحكم الفرنسي في الجزائر، إذ يكاد رأيه في العهد العثماني أن يكون سلبيا، وهو رأي معظم الجزائريين حينذاك، ولكن بالمقارنة مع ما ارتكبه الفرنسيون خلال الثلاث سنوات، فإن حمدان خوجة ظهر مفضلا للحكم التركي حين قال مقولته الشهيرة: «اللهم ظلم الأتراك (أنظر التعليق رقم 07) ولا عدل الفرانسيس» (خوجة، 1972، الصفحات 78-79).

كما قام بمقارنة حالة الشعب الجزائري تحت نير القهر والاضطهاد، ببقية شعوب أوروبا التي تنعم بالحرية والعدالة الاجتماعية وتتمتع بثمار الحضارة والمدنية المعاصرة، محاولا بذلك تأنيب القوى الأوروبية وخاصة فرنسا التي تطبق العدالة تجاه

شعوبها وتعترف بالحقوق البشرية وتنادي بتحرير الشعوب، وفي المقابل تقوم بكل ما هو مخالف لتلك الأصول التحررية في الجزائر (خوجة، 1972، الصفحات 177-187).

- السعي نحو إقناع القارئ والمتلقي عن طريق التعبير عن مواقفه من الأحداث وإبداء رأيه في القضايا المطروحة محاولا استخلاص النتائج انطلاقا من المعلومات التي عرضها والوقائع التي سجلها. وفي هذا السياق تناول حمدان خوجة في كتابه "المرآة" أحداث الشغب المفجع والعنف الذي تعرضت له قبيلة العوفية التي كانت تسكن ناحية الحراش، معبرا عن اندهاشه من هذه الواقعة، وعن أسفه الكبير لعدم اتخاذ الحكومة الفرنسية لأدنى الإجراءات للتنديد بهذه الأعمال الأليمة، في الوقت الذي كان من الضروري عليها أن تعوض السكان القلائل الذين سلموا من المذبحة ما أتلف من أملاكهم، وأن تمتنع على الأقل عن بيع الغنائم المغتصبة، خاصة وأن السيد بيشون (الدبلوماسي الفرنسي والمعتمد المدني الأول في الجزائر بعد الاحتلال) كان قد قدم في كتابه تفصيلا مهما عن تلك الفضيحة التي ستكون صفحة سوداء في تاريخ الشعوب، والتي لا يصدق الكثير أنها وقعت في القرن التاسع عشر عهد الحرية والحضارة الأوروبية (خوجة، 1972، الصفحات 42-43).

– الالتزام في كل ما عرضه ضمن كتابه "المرآة" بالدقة والصدق باعتبارهما أمران ضروريان في إقناع المتلقي، كما عمد إلى ترتيب المعلومات ومقارنتها مما أكسبها المنطقية وزاد في قربها إلى ذهن القارئ (كعوان، 2011- 2012، صفحة 340).

- خاتمة:

بعد هذا العرض، يمكننا القول أن حمدان خوجة كان من أوائل المفكرين المغاربة الذين اطلعوا على مفهوم القومية والوطنية الحديثة، فعمل على نشرها من خلال كتابه "المرآة" الذي ملأه بأفكار قومية تحررية في إطار مجابهة المستعمر الفرنسي، وأصبح أحد أبطال القومية العربية الإسلامية وأبرز رواد الوطنية الجزائرية، باعتبار أنه ساهم من خلال كتابه "المرآة" في وضع اللبنات الأولى التي قام عليها صرح الوطنية، وأدلى بمواقف وآراء شجاعة تهدد وجود فرنسا في الجزائر، في وقت كانت فيه الرقابة الفرنسية واقفة

بالمرصاد لكل جريء يخوض في قضيتي العدالة والحرية. وعليه يمكن القول أن كتابته التاريخية قد اتخذت شكل المقاومة الثقافية والسياسية للاستعمار الفرنسي، وهي المقاومة التي لم تعرفها الجزائر جليا إلا بعد حوالي قرن من الاحتلال، إن دل هذا على شيء إنما يدل على مكانة كتابه "المرآة" ضمن مدرسة التاريخ الوطني، فهو من المصادر العلمية القيمة في تاريخ الجزائر، كيف لا وقد انتهج حمدان خوجة في كتابه الأخذ عن الثقات والمشاهدة المباشرة لمختلف الأحداث التي شهدتها الجزائر خلال الفترة الأخيرة من العهد العثماني والفترة الأولى من الاحتلال الفرنسي.

- التعاليق:

-**التعليق رقم 01:** خوجة أو خواجة، كلمة فارسية كانت تستعمل كلقب تشريف يُمنح للأعيان من وزراء وعلماء، ثم انتقلت إلى تركية، وأصبحت خوجة بمعنى المسجل أو الكاتب (بن نعيمة، 2007، صفحة 122).

-**التعليق رقم 02**: المكتابجي هو رئيس الكتبة الآخرين المكلف بفرض الضرائب والمحافظة على سجل المحاسبات الرئيسي للدولة (سعيدوني، 1984، صفحة 32).

-**التعليق رقم 03:** الأفندي هو لقب يطلق على كبار الموظفين بالجزائر، كان يخص به الداي المفتي وفقط، حيث كانت مهمته الإشراف على الحسابات الإدارية (الميزانية)، وعلى السجلات التي تشمل أسماء ورتب الانكشارية (بن نعيمة، 2007، صفحة 122).

-التعليق رقم 04: هناك اختلاف بين الباحثين والمؤرخين حول تاريخ وفاة حمدان خوجة، فجورج إيفار حدد تاريخ وفاته ما بين 1840 و1845، في حين أشار محمد بن عبد الكريم إلى ثبوت وفاته في أواخر 1840 (عميراوي، 1987، صفحة 61).

-**التعليق رقم 05:** لقد ذكر رضا باشا ابن حمدان خوجة في كتابه "مرآة الجزائر"، في النسخة التركية المترجمة عن العربية، أن والده عندما كان مقيما بباريس، أراد أن يطلع وزراء الحكومة الفرنسية على مساوئ الإدارة المدنية بالجزائر الناتجة عن احتلال الجزائر، فألف كتابه "المرآة" بالعربية (التميمي، 1985، صفحة 133).

-**التعليق رقم 06:** حسونة الدغيس الطرابلسي، هو أحد الشخصيات البارزة التي لعبت دورا فكريا وسياسيا لصالح القضايا المغربية، لجأ من طرابلس الغرب إلى فاس ثم إلى

لندن وبعدها إلى باريس، ثم استقر بإسطنبول، حيث توفي بها يوم 17 ديسمبر 1836 (التميمي، 1985، الصفحات 263-274).

-التعليق رقم 07: ذكر أبو القاسم سعد الله عند حديثه عن كتاب المرآة أن حمدان خوجة كان غير راض لما كان عليه حال الدايات ابتداء من مصطفى باشا في أول القرن، وكان بحكم نشاطه التجاري، ناقما على نفوذ بعض العائلات اليهودية لدى رجال الدولة، مثل عائلة بكري التي كان لديها نفوذ في أوروبا واحتكار للأسواق الجزائرية باتفاق مع الدايات، فعلى هذا الأساس كان حمدان خوجة مثله مثل غيره من أحفاد العثمانيين في الجزائر ناقما على الوضع في الجزائر متمنيا تغيير الأحوال (سعد الله، 1998، صفحة 398).

قائمة المصادر والمراجع:

_ الجيلالي عبد الرحمن بن محمد (1994)، تاريخ الجزائر العام، ج 04، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

_ بديدة لزهر، (2010)، رجال من ذاكرة الجزائر، ج06، الجزائر: وزارة الثقافة.

_ بن عبد الكريم محمد، (1972)، حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.

_ بوصفصاف عبد الكريم وآخرون، (2004)، معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج02، قسنطينة: منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري.

_ بكاري عبد القادر، (2015 – 2016)، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني 1519- 1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران: قسم التاريخ وعلم الآثار.

_ تميم آسيا، (2008)، شخصيات جزائرية. مئة شخصية تاريخية وفكرية، الجزائر: دار المسك للنشر والتوزيع.

_ كبير سليمة، (د.ت)، حمدان بن عثمان خوجة أول ناطق باسم القضية الجزائرية، الجزائر: المكتبة الخضراء للنشر والتوزيع.

_ عميراوي حميدة، (1985)، حمدان خوجة حياته وآثاره، مجلة الثقافة، العدد 90، الجزائر: منشورات وزارة السياحة والثقافة.

_ شاوش محمد بن رمضان والغوثي محمد، (2002)، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج03، الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر.

_ سعد الله أبو القاسم ، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي 1830- 1954، ج07، ط01، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

_ عقاب محمد الطيب، (2007)، حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، منشورات الجزائر: وزارة الثقافة.

_ خوجة حمدان، (1972)، المرآة. لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر، تعريب وتعليق محمد بن عبد الكريم، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

_ عميراوي حميدة، (2005)، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين. أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين. اكتشاف الذات والآخر ثورة الجزائر2005، ط01، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع.

_ جوليان شارل أندري، (2008)، تاريخ الجزائر المعاصر. الغزو وبداية الاستعمار 1827- 1871، ج01، الجزائر: دار الأمة.

_ خوجة حمدان، (1968)، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

_ مرتاض عبد المالك، (1983)، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925- 1954. النهضة الفكرية- النهضة الصحفية والأدبية- النهضة التاريخية، ط 02، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

_ زوزو عبد الحميد، (أكتوبر 1971)، حمدان خوجة ومنهجه في كتابة التاريخ، مجلة الأصالة الجزائرية، العدد04، مجلة ثقافية تصدرها وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، الجزائر.

_ كعوان فارس، (2011- 2012)، المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي 1830- 1962. مساهمة في التاريخ الثقافي والفكري، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة قسنطينة.

_ بن نعيمة عبد المجيد وآخرون (2007)، موسوعة أعلام الجزائر 1830- 1954، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

_ سعيدوني ناصر الدين (1984)، موظفي الدولة الجزائرية في القرن التاسع عشر. الجزائر: الموسوعة التاريخية للشباب.

_ عميراوي حميدة (1987)، دور حمدان خوجة في تطوير القضية الجزائرية 1827- 1840، ط 01، الجزائر: دار البعث للنشر والتوزيع.

_ التميمي عبد الجليل، (1985)، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي "الجزائر. تونس. ليبيا" 1816- 1871، ط02، زغوان: منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني.